

الحوار والجدل

كأسلوب من أساليب التربية في القرآن الكريم

مقدمة :

من الأكوال الشائعة التي يرددها كثير من اللادينيين أن الأديان تقوم على جملة من الأفكار التي لا يستقيم إيمان إلا بالتسليم بها ، وأن التوقف عند هذه الأفكار للتساؤل عنها ومدى صحتها يستتقض الإيمان ، بينما العلم على العكس من ذلك ، الفكرة فيه إن هي إلا فرض يظل موضع شك وتساؤل ، قابلا للأخذ به أو نقضه ، والذي يفصل في ذلك هو التجربة ، أو الحوار والنقاش والجدل .

وليس مرادنا هنا أن ندفع هذا الاتهام الجائر للفكر الديني ، ذلك أننا نرفض أن يكون الفكر الديني مجرد رد فعل لرد اتهام ، وإنما مرادنا أن نبين من خلال الحجة والدليل والبرهان ، أن الإسلام في تربيته للشخصية المسلمة ينتهج نهجا عقليا يقوم على الجدل والحوار والمناقشة .

ونحن في سبيل هذا سنتناول القرآن الكريم بالدرجة الأساسية ، فهو كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وهو الكلمة الفاصلة في كل ما يردده الله وما لا يريد ، وهو الحقيقة الفاصلة الحاسمة بين الحق والباطل ﴿ نَلِكِ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ (١) ، ومن ثم فهو الذي يجب أن ندرسه دراسة واعية تقوم على الفهم والافتتاح ، وتقوم على الدراية والهداية .

المعنى والمكانة :

الفرق بين الحوار والجدل ، فيما هو واضح من استخدامات القرآن الكريم لكل منهما أن الحوار يكون عندما يضطرب الذهن ويصبح العقل في حيرة من أمر نفسه وأمر قضية من القضايا أو مسألة من المسائل . ويراد من الحوار أن يخرج من كل ذلك . وتكون مادة للكلام في الحوار هيئة لينة أو غير قاسية وغير عنيفة . أما الجدل فيكون عندما يكون هناك صراع

(١) البقرة / ٢ .

فكرى حول قضية من القضايا أو مسألة من المسائل ، ويكون الهدف عند كل واحد من المتجادلين هو هزيمة الآخر فكريا والانتصار عليه ^(١) .

ومن الألفاظ قريبة المعنى من الجدل والحوار ، كلمتا (المناظرة) و (المكابرة) ، فالمناظرة يكون الغرض منها الوصول إلى الصواب في الموضوع الذى اختلفت أنظار المتناقشين فيه . والمكابرة ، لا يكون الغرض منها إلزام الخصم ، ولا الوصول إلى الحق ، بل اجتياز الموقف ، والشهرة أو مطلق الحاجة ، أو غير ذلك من الأغراض التى لا تغنى فى الحق فتيلًا .

وقد تشتمل المناقشة على كل هذه الأنواع ، إذ قد يبتدى المتناقشان حوارهما متناظرين طالبين للحق ، فيقدح فى ذهن أحدهما رأى يثبت عليه ويأخذ فى جذب خصمه إليه ، وإلزامه به ، وحينئذ تنقلب المناظرة جدلا .

وقد تدفعه الحاجة إلى التعصب لرأيه ، وتأخذه العزة بالإثم ، تبدو له الحجج واضحة على نقيض رأيه ، ويفحمه خصمه بالدليل ثلو الدليل ، فلا يجد جوابا ، ومع ذلك يستمر فى لجاجته ، فينتقل الجدل إلى مكابرة . وقد تشتمل المناقشة على جدل ومناظرة ، كأكثر المحاورات السقراطية . كان سقراط يبتدى بمجادلة خصمه فيما يدعيه ، حتى يفحمه ، فيقتنع بجهله ، ثم يناقشه حتى يأخذ بيده إلى الحق ^(٢) .

وقد وردت كلمتا الحوار والجدل فى القرآن الكريم فى أكثر من موضع ، ولكن الكلمة الأولى أقل استعمالا من الثانية .. فنحن لا نجد لها ذكراً إلا فى آيات ثلاث ، جاءت اثنتان منها فى سورة الكهف فى معرض الحديث عن قصة صاحب الجنتين وحواره مع صاحبه الذى لا يملك الكثير من المال وغيره ، فقد استعمل القرآن الكريم كلمة الحوار فى موضعين منها ^(٣) . أما الآية الثالثة التى وردت فيها هذه الكلمة . فقد جاءت فى سورة المجادلة فى قصة المرأة التى أتت إلى النبى صلى الله عليه وسلم شاكية زوجها إلى الله ^(٤) .

^(١) محمد أحمد خلف الله : مفاهيم قرآنية ، الكويت ، سلسلة عالم المعرفة (٧٩) يصدرها المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب ١٩٨٤ ، الكويت ، ص ١٥٧ .

^(٢) محمد أبو زهرة : تاريخ الجدل ، دار الفكر العربى ، القاهرة ، ١٩٨٠ ، ص ٥ .

^(٣) الكهف / ٣٤ ، ٣٧ .

^(٤) المجادلة / ١ .

أما الكلمة الثانية فقد جاءت الإشارة إليها في سبعة وعشرين موضعا ، في القضايا الخاصة والعامة ، من دينية تتعلق بقضايا العقيدة والحياة ، أو اجتماعية تدخل في أمور المجتمع .

وقد أخذت هذه الكلمة هذه المساحة الواسعة في القرآن الكريم نظرا لما واجهه الإسلام من قضايا أو عاش فيه الإنسان من مواقف . لقد واجه الإسلام التحديات الفكرية والتقليدية التي تعيش في داخل وعي الإنسان وفكره مما يدخل في حركة التغيير التي يريد الإسلام لها أن تغزو أعماق الإنسان وفكره ، لتنتقله من ظلمات الشرك والكفر والضلال ، إلى نور الإيمان والتوحيد والهداية (١) .

كما أنه واجه التحديات الخارجية من القوى الدينية والاجتماعية والسياسية التي كانت تسيطر على حياة الإنسان في المجتمعات التي لم تكن تؤمن بالإسلام ، فقد عملت الكثير من أجل ألا تسمح للإسلام بالتقدم ، لتعطل فاعليته ، وتؤخره عن مسيرته بمختلف الوسائل التي تملكها ، سواء في ذلك ما أثارته من حروب طويلة مرهقة وما وضعته أمامه من حواجز وعقبات ، وما حشدته من شبهات وأفكار وأساليب اللف والدوران ، من أجل أن تزرع في النفوس المزيد من القلق والشك والحيرة ، بالنسبة إلى ما يقدمه الإسلام من هدى وحلول لمشاكل الحياة الداخلية والخارجية .

وعلى هذا الأساس ، وقف الإسلام في وجه كل هذه التحديات ليرد التحدى بمثله ، من موقع الرغبة في الوصول إلى الحق ، وإصاح المجال للأفكار بأن تلتقى بمفاهيمه ، لا من موقع الرغبة في الغلبة من أجل حب الغلبة ، ولهذا لجأ الإسلام إلى الجدل القائم على الحوار (٢) والمادة اللغوية التي جاءت منها كلمة الجدل هي (ج د ل) ، تقول جدل الرجل جدلا - خاصم . والجدل هو المنازعة في الرأي ، ويطلق على شدة الخصومة واللد فيها وتقول : جادل مجادلة وجدال - خاصم : ﴿ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تَجَادِلُ عَن نَفْسِهَا ﴾ (٣) والجدل قد يكون بالباطل ليصرف عن الحق ، وقد يكون ليدحض الباطل ، والمقام هو الذي يعين المراد ﴿ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ ﴾ (٤) . ويقول الرابع في كتابه المفردات

(١) محمد حسين فضل الله : الحوار في القرآن ، الدار الإسلامية ، بيروت ، ١٩٧٩ ، ص ١٦ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٧ .

(٣) النحل / ١١١ .

(٤) غافر / ٥ .

فى غريب القرآن : الجدل : المفاوضة على سبيل المنازعة والمغالبة . وأصله من جدلت الحبل أى أحكمت قتله ، ومنه الجديل ، وجدلت البناء : أحكمته . والمجدل : القصر المحكم البناء . والأجلد : الصقر المحكم البنية ، ومنه الجدل ، فكان كل واحد من المتجادلين يقتل الآخر عن رأيه (١) .

وقيل الأصل فى الجدل : الصراع ومحاولة كل واحد إسقاط صاحبه على الجدالة - وهى الأرض الصلبة .

وأصل المادة اللغوية التى منها جاءت كلمة الحوار : (ح ، و ، ر) ، تقول : حار يحور حورا : رجع (إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ) - أى يبعث ويرجع للحياة مرة ثانية . وحاورة محاوره : راجعه فى الكلام . وتحاورا : تراجعا وتجاوبا (٢) (قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ) ، (وَاللَّهُ يَمْنَعُ تَحَاوُرَكُمَا) ، ويقول الراغب فى كتابه المفردات : الحور : التردد - أما بالذات وإما بالكفر . وحر الماء فى الغدير : تركه فيه . وحر فى أمره : تحير . ومنه المحور إلى تجرى عليه البكرة لتردده ، والمحاوره والحوار : المرادة فى الكلام (٣) .

صور وأساليب الجدل والحوار :

جاء فى القرآن الكريم عن الإنسان قوله تعالى : ﴿ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴾ (٤) فقد نستوحى من هذه الآية الكريمة أن هذه الصفة ، الجدل ، من الصفات اللازمة للإنسان فى طبيعة خلقه وتكوينه ، تماما ، كبقية الصفات الفطرية التى تميزه عن سائر المخلوقات ، فقد فطر الإنسان على أن يواجه الحياة بكل ما فيها من أوضاع وأحداث وملابسات وأفكار ، بعقلية متفتحة قلقة ، لا تستقر على حال ، فتراه يفتش عن الشيء وضده فى رحلة جديدة نحو الشك ، ولا يشك إلا ليبدأ رحلته الطويلة نحو اليقين (٥) .

وهكذا تتنوع الأفكار والآراء وتختلف فى كل مرحلة من مراحل حياته ، تبعاً للقضايا التى تفرض هذا الرأى أو ذلك مما يجعل قضايا الفكر تتنامى وتتصاعد وتتضخم ، وتختلف وراءها عديداً من الأتباع والأنصار الذين يكونون فى حياة البشرية دوائر مختلفة تتميز

(١) خلف الله : مفاهيم قرآنية ، ص ١٦٧ .

(٢) مجمع اللغة العربية ، القاهرة ، المعجم الوسيط ، مادة (حور) .

(٣) مفاهيم قرآنية ، ص ١٦٧ .

(٤) الكهف / ٥٤ .

(٥) فضل الله ، الحوار فى القرآن ، ص ٢١ .

بمميزات فكرية واقتصادية واجتماعية وسياسية . ولا بد للحق - فى مثل هذه الأجواء - أن يواجه ذلك كله بأساليب مماثلة أو متفوقة ، لأن الطريق إلى فكر الإنسان وقلبه لم تعد خالية ، بل أصبحت مزدحمة بكثير من المفاهيم والآراء التى تحجب عنه الحق أو تمنعه من وضوح الرؤية مما يتطلب جهدا كبيرا فى تمهيد الطريق التى يملكها إلى حياة الإنسان الفكرية والعقدية من حيث الأسلوب والفكرة (١) .

تسرى : ما الأساليب والصور التى اتخذها الجدل والحوار فى القرآن الكريم ؟ إذا ما سوف نحاول بيانه فيما يلى :

١- القصة : تحتل القصة مكانا بارزا فى القرآن الكريم مما يؤكد إدراك الإسلام لميل الإنسان الفطرى إلى القصة ، وإدراكه ما لها من تأثير ساحر على القلوب ، فيستغلها لتكون وسيلة من وسائل التربية والتقويم . والقرآن يستخدم كل أنواع القصة : القصة التاريخية الواقعية المقصودة بأماكنها وأشخاصها وحوادثها ، والقصة الواقعية التى تعرض نموذجا لحالة بشرية ، فيستوى أن يكون بأشخاصها الواقعيين أو بأى شخص يتمثل فيه ذلك النموذج ، والقصة التمثيلية التى لا تمثل واقعة بذاتها ولكنها يمكن أن تقع فى أية لحظة من اللحظات وفى أى عصر من العصور (٢) .

وللقصة فى القرآن طريقتان :

أ- طريقة عرض الأحداث بشكل تقريرى تنتقل فيه الحكاية من مرحلة إلى مرحلة حتى تبلغ نهايتها .

ب- طريقة الحوار الذى يحاول أن يمثل فيه كل طرف من أطراف القصة ، ولكل بطل من أبطالها دوره الذى يعبر عنه بأسلوب واضح ، ويشير فيها بعض القضايا التى يقف إزاءها البطل الآخر ليعبر عن دوره بكل أمانة ووضوح .

ومن أمثلة القصص القرآنى فى هذا الشأن ، قصة صاحب الجنتين ﴿ وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زُرْعًا . كَلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أَكْلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا وَقَجَرْنَا خِلَالَهُمَا نَهْرًا . وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفْرًا ، وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ

(١) المرجع السابق ، ص ٢٢ .

(٢) محمد قطب : منهج التربية الإسلامية ، دار القلم ، القاهرة ، ط ٢ ، ص ٢٢٧ .

أَبْدَأَ ، وَمَا أَظُنُّ الْمَاعَةَ قَائِمَةً وَلَنْ رُبِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا . قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نَظْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا ؟ لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا . وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنْ تَرَنِ أَنَا أَهْلٌ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحُ صَعِيدًا زَلَقًا ، أَوْ يُصْبِحَ مَاوَهَا غُورًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا . وَأَحِيطَ بِشَمْرِهِ فَاصْبِحْ يَقْلَبُ كَفَيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا . وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِتْنَةً يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿ ١١ ﴾ .

والتربية بالحوار أكثر ما تكون في القصص الطويلة التي تتسع للجدال . والقرآن يختار من هذا الجدال لقطات من الأقوال الموحية فيصوغها في عبارات موجزة بلغة تفيض حكمة ورشدا فيما يجرى على السنة الهداة ودعاة الحق الذين يسلكون في الحوار مسلك الحكماء ، أو ضلالا وزيفا فيما تتضح به القلوب المريضة والنفوس المنحرفة (٢) .

والقرآن إذ يفتح في قصصه مجال القول لخصوم الحق ودعاة الفتنة ، فإنما ليكشف عن زيغهم وضلالهم ، ولينبه إلى فساد رأيهم وباطل قولهم .

وفى بعض الحوار إرشاد لطرق المحاجة والمناقشة وبيان الحق ، وإرشاد إلى الخلق الكريم والأدب العالي ، فهوود عليه السلام يدعو قومه إلى توحيد الله ، وإلى ما فيه صلاحهم وسعادتهم فيقولون له : ﴿ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ فيرد عليهم بقوله : ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَكُنْتِي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، أَلْبَعُثَكُمْ رَسُولَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ . أَوْعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ نِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَادْكُرُوا آيَةَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تَفْلِحُونَ ﴾ (٣) .

٢- التمثيل : واستخدم القرآن (التمثيل) لتقريب المعاني البعيدة ، وللبرهنة على وجود الله عز وجل ووحدانيته ، كما استخدمه لتوجيه السلوك الإنساني إلى ما هو خير له ولدينه قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ (٤)

(١) الكهف / ٣٢-٤٣ .

(٢) التهامي نغرة : سيكولوجية القصة في القرآن ، الشركة التونسية للتوزيع ، تونس ، ١٩٧٤ ، ص ٥٨٥ .

(٣) الأعراف / ٦٧ .

(٤) الزمر / ٢٧ .

وقال سبحانه ﴿ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾^(١) وقال عز وجل :
﴿ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾^(٢) ، ومن الشواهد على ذلك قوله
تعالى : ﴿ أَيُودُ أَحْكَمُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ
كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَّتْ كَذَلِكَ يَبَيِّنُ اللَّهُ
لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾^(٣) .

إن الجنة هنا ظليلة وارفة مخصبة ، وكذلك الصدقة فى طبيعتها وفى أثرها .. كذلك
هى فى حياة المعطى وفى حياة الآخذ وفى حياة الجماعة الإنسانية . كذلك هى ذات روح
وظل ، وذات خير وبركة ، وذات غذاء وروى ، وذات زكاة ونماء ، فمن ذا الذى يود أن
تكون له هذه الجنة - أو هذه الحمسة - ثم يرسل عليها المن والأذى يحرقها محقا ، كما يحرق
الجنة الإعصار فيه نار ؟ ومتى ؟ فى أشد ساعاته عجزا عن إنقاذها ، وحاجة إلى ظلها
ونعمائها . وهكذا يقوم المشهد الحى الشاخص ، بما فيه أول الأمر من رضى ورفه ومتعة ،
وما فيه من نضارة وروح وجمال ، ثم بما يعصف به عصفاء من إعصار فيه نار .. يقوم هذا
المشهد العجيب بالإحياء الشعورى الذى لا يدع مجالاً للتردد فى الاختيار ، قبل أن تذهب
فرصة الاختيار ، وقبل أن يصيب الجنة الوارفة الظليلة المثمرة إعصار فيه نار^(٤) .

وقال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ
وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ، تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ
يَتَذَكَّرُونَ ، وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ ﴾^(٥) ،
فصور كلمة الحق طيبة ، وكلمة الباطل خبيثة ، فجعل الأولى كالشجرة الصنة المثمرة المظلة
النافعة الراسخة السامقة تسخو بثمرها فى حينه بإذن الله . وأما الثانية فإتتها كالشجرة العبيحة
الكريهة التى استوصلت من مكانها ، فلا حياة فيها ولا رعاية لها ، ولا نفع منها ، وكذلك
التوحيد يعمر قلب المؤمن ويهديه إلى طاعة الله وإلى العمل الصالح ، فينال الثواب فى دنياه
وفى أخراه . كذلك الشرك ، فإنه باطل وكبيح وليس له خير ولا بقاء .

(١) إبراهيم / ٢٥ .

(٢) النور / ٣٥ .

(٣) البقرة / ٢٦٦ .

(٤) سيد قطب : فى ظلال القرآن ، القاهرة دار الشروق ، ١٩٨٢ ، ج ١ ، ص ٣١٠ .

(٥) إبراهيم / ٢٤ - ٢٦ .

وهكذا يوضح الله الأمثال للناس ، ويشبه لهم المعنويات بالمحسوسات ليفهموا ويعلموا ويؤمنوا إيماناً راسخاً قويا (١) .

وفى القرآن الكريم أنواع أخرى من التمثيل من شأنها أن تثبت الوعي فى العقول النائمة بما تحمله من قوة الحجة وصدق البرهان ، من ذلك :

- قوله تعالى : ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (٢) ، فالله الذى خلق آدم من غير أبوين ، من المنطقى أن يكون قادرا على خلق عيسى من غير أب .

- وقوله تعالى : ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلٌ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٣) .

فشتان ما بين المؤمنين والمشركون لأن المؤمنين هداهم الله فجعل إيمانهم به نورا يسترشدون به فلا يضلون فصاروا كالأحياء بعد موت (٤) .

٣- الشك المنهجي : ونقصد به أن يطرح الإنسان عن عقله تأثير المورثات الفكرية السابقة ليبدأ تفكيره فى القضية المعروضة عليه وفقا لما تقوم عليه من حجج وأسانيد ، فهو إذن الشك الذى يوصل الإنسان إلى اليقين ، وليس ذلك الشك الذى يززع الثابت ولا يقدم البديل الأفضل فيعيش الواقع تحت تأثيره فى هم وقلق دائمين .

إن الإنسان حينما ينشأ فى بيئة من البيئات الاجتماعية ، لابد أن يكتسب منها عن طريق التقليد معارف ومهارات وعادات وأخلاقا كثيرة ، ومن هذه المكتسبات ما هو حق ، ومنها ما هو باطل ، ومنها ما هو فاسد ، ومنها ما هو شر ، وبمقتضى نشوئه فى هذه البيئة يستكون فى نفسه إلف لها مهما كان وضعها ، وإذ يعتبر نفسه جزءا من هذه البيئة يتكون لديه بدوافع الأنانية الذاتية خلق التعصب لأهله وعشيرته وقومه وسائر من هم فى بيئته ، وجميع ما هو فى بيئته من مفاهيم وعادات وأخلاق ، لأنه بتعصبه هذا يحاول أن يدافع عن كيانه الذاتى من وجهة نظره المنحرفة عن منهج التفكير السليم دون أن يسمح لعقله المتجرد عن

(١) أحمد محمد الحوفى : القرآن والتفكير ، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، القاهرة ، سلسلة دراسات فى الإسلام (١٧٠) ، ص ٨٠ .

(٢) آل عمران / ٥٩ .

(٣) الأنعام / ١٢٢ .

(٤) الحوفى : القرآن والتفكير ، ص ٨٢ .

مؤثرات البيئة أن يبحث ويناقش ، ويميز بين الحق والباطل ، والصالح والفساد ، والخير والشر (١) .

ولعل من أوضح الأمثلة التاريخية لذلك ، ما كان عليه المشركون عندما برز الإسلام كدعوة توحيد ، فلقد احتج الجاهلون بأنهم إنما يسيرون على منوال آبائهم ، فهنا يسخر منهم القرآن ويطلب منهم أن يعرضوا هذا الذي كان عليه آباؤهم على ميزان عقلم وتفكيرهم ، وهم إذا فعلوا ذلك ، فيسكتشفون ما عليه من زيف وتهافت ، ويمتظلون بظلال الإسلام ذات اليقين الراسخ ، يقول تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَىٰ الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ (٢) وقال تعالى أيضا : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كُنَّا آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ (٣) .

كذلك يستطيع المسلم أن يستمد من القرآن في هذا الشأن أسلوبا عمليا آخر يواجه فيه الخصم بقناعاته المرتكزة على ما يملك من أدلة وبراهين على صحتها - من جهة - وضاد الأفكار المضادة لها من جهة أخرى ، ولكنه لا يجعل من هذه القناعات مدا منيعاً يخلق على الموقف أبواب التحرك مع قناعات الآخرين ، بل يترك الباب مفتوحا للأفكار المضادة لتطرح نفسها من جديد من خلال ما تملك من أدلة جديدة تستطيع أن تتغلب على أدلة الفكرة التي يؤمن بها ، لتثبت أنها أفضل وأهدى سبيلا (٤) .

ولعل وجه القيمة في هذا الأسلوب ، أنه يجرد الموقف من حالات التعصب والترمت التي تحجر الفكرة فلا يسمح لها بالتحرك الذي تخوض معه قصة الصراع من جديد ، فيكون الموقف الإيماني واضحا قويا يتحدى ويقبل التحدى بحيث يكون جاهزا لذلك في كل وقت ، كلما برزت هناك حاجة جديدة للصراع أو كلما استطاع الخصم أن يحصل على دليل جديد للفكرة المضادة وهذا هو الذي توضحه لنا الآية الكريمة : ﴿ قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعُهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (٥) .

(١) عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني : أسس الحضارة الإسلامية ومسائلهما ، مكة ، ط١ ، ص ٢٩٢ .

(٢) المائدة / ١٠٤ .

(٣) البقرة / ١٧٠ .

(٤) فضل الله الحواري في القرآن ، ص ٥٦ .

(٥) القصص / ٤٩ .

فالقضية ، كل القضية ، هي أن هناك هدى يجب أن يتبع فى الطريق ، أو فى الغاية ، وقد كان إيماننا ومسيرتنا فى خط هذا الإيمان ، على أساس قناعتنا بأنه الهدى وأن غيره ضلال وانحراف ، فإن كان لديكم طريق أفضل ، أو كتاب أهدى فدلونا عليه لنتبعه لأننا لا نخضع لأية عقدة ذاتية فى هذا المجال .

٤- السؤال : وحفلت آيات القرآن الكريم بالعديد من أدوات الاستفهام ، فضلا عن آيات متعددة تبدأ بكلمة (يسألونك) و (سألك) و (سألتها) و (سألهم) و (يسألك) . ومن استعراض الآيات التى تناولت الأسئلة ، نجدها مغايرة لما ألقناه فى السؤال والجواب ، حيث معلوم بأن السؤال يقصد به فقط الجواب عن مضمون السؤال والجواب ، حيث معلوم بأن السؤال يقصد به فقط الجواب عن مضمون السؤال . ولكن بلاغة القرآن وتفوقه البيانى ونهجه التربوى انتحى بالسؤال منحى الهدف والغاية والوسيلة والحجة والبرهان والدليل ، فوجدنا أسلوب الأسئلة فى القرآن يهدف إلى : التنبيه والتحذير والإعداد للإجابة ، وإلى التوبيخ والسخرية والاعتراف وإلزام الحجة ومراعاة الممنول ويشير إلى الجزاء والحساب والطلب والبحث عن البراءة ، والتأكيد على الأزمات وعلى قدرة الله والتنبيه إلى سؤال المختص ، والاستتكار والتحسر وإلى المعرفة والاعتراف والمحادثة والمسامرة وإلى تعجل الأمور والمكابرة ومراعاة الأجوبة (١) .

وكثيرا ما جاءت فى كتاب الله تعالى أسئلة للتحدى ، اقترن فيها التحدى باستشارة العقول الخادمة وإيقاظ القلوب الجاحدة والحض على التفكير والتعقل (٢) .

- فقد سألهم : هل لأحد منكم شركاء من عبده يهابهم فيما يريد أن يفعل أو يستقل بتصرفه من شئون ؟ وهل لهؤلاء العبيد أن يستبدوا بعمل لا برضاء سيدهم ؟ وهل يهاب الأحرار عبيدهم كما يهاب بعضهم بعضا ؟

الجواب على هذا كله بالنفى ، فكيف يعقل إنسان أن يكون لله تعالى - وهو خالق الأحرار والعبيد ومالكهم - شركاء من خلقه ؟ قال تعالى : ﴿ ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِّنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَلِكَ نَفَصَلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (٣) .

(١) عبد القادر حاتم : الإعلام فى القرآن الكريم ، مطابع الأهرام التجارية ، ١٩٨٥ القاهرة ، ص ٢٤١ .

(٢) الحوفى : القرآن والتفكير ، ص ٦٦ .

(٣) الروم / ٢٨ .

- وسألهم : انظروا إلى النطف التي يخلقكم منها ، أنتم خالقوها أم هو سبحانه ؟
وعقب على هذا بأنه الخالق الذي أحياكم مما أراد ، فهو القادر على أن يخلق أشباهكم وهو
القادر على أن يبذلكم خلقا آخر لا تعلمونه ، وهو القادر على أن يبعثكم يوم القيامة أحياء .

وقال لهم : انظروا إلى الزرع الذي تزرعونه ، أنتم الذين تصيرونه نباتا يريف ويكبر
أم الله تعالى ؟ إنه الله الذي يستطيع أن يجعل الزرع هشيا فتالمون وتتحسرون على ما أنفقتم
عليه من جهد ومال ، وتندمون على معصيتكم لله التي أنزلت بكم هذه الخسارة ، وتقولون إننا
لهالكون بهلاك زرعنا وضياع رزقنا ، بل إننا لتعماء لا حظ لنا من الخير ^(١) .

وسألهم : فكروا في الماء الذي تشربونه : من الذي خلقه ؟ من الذي أنزله من
السحاب أنتم أم الله ؟ إنه الله القدير على جعل الماء العذب ملحا زعافا لا يشرب ولا ينقع من
غلة ، فهلا أن لكم أن تشكروا لله نعمه الكثيرة عليكم ؟ وقال لهم : تدبروا في النار التي
توقدونها لمنافعكم الكثيرة ، أنتم الذين خلقتم شجرها أم الله أن الله هو الذي خلقها ، وهو الذي
يذكركم بها نار جهنم وهو الذي جعل فيها منافع لمن يوقدونها في الفقر وفي الحضر لإيضاج
الطعام وممارسة الصناعات . قال تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ ؟ أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ
الْخَالِقُونَ ؟ نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا
تَعْلَمُونَ ، وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى فَلَوْلَا تَتَذَكَّرُونَ . أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ ؟ أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ
نَحْنُ الزَّارِعُونَ ؟ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ إِنَّا لَمُعْرِضُونَ ، بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ .
أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ؟ أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ ؟ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ
أَجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ . أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ ، أَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ ؟
نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذَكِّرَةً وَآمَنًا لِلْمُقِيمِينَ ﴾ ^(٢) .

٥- التفكير المنطقي : ومعناه المبسط هنا هو أن نقيس أمرا مجهولا على أمر معلوم
لنرى ما بينهما من تشابه أو تضاد ، فإذا اتفقا كان حكمهما واحدا ، وإن اختلفا اختلف الحكم
بمقدار ما بينهما من خلاف . وقد يكون التناقض التام أساسا للحكم على المجهول كالتناقض

^(١) الحوفي ، القرآن والتفكير ، ص ٦٧ .

^(٢) الواقعة / ٥٨ - ٧٣ .

بين الحياة والموت والليل والنهار والعمى والإبصار (١) : ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ ، وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ، وَلَا الظُّلُّ وَلَا الْحَرُورُ ، وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ ﴾ (٢) .

ومن أمثلة القياس المنطقي الذي أثبت به الله عز وجل الوجدانية ، ما نجده في قوله تعالى : ﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَعَلَىٰ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ ﴾ (٣) .

فها نحن نرى أن هذه الآية قد بدأت بالحكم في القضية وهي الوجدانية المطلقة المنزهة عن الشريك وكأنها أمر واضح لا لبس فيه ، ولا غموض ولكنها مع هذا الحكم جاءت تحمل معها البرهان القاطع والدليل ، فكأنها حكم في قضية أصدره القاضي ورفعه بحیثیات الحكم التي لا مجال معها لنقض ولا إیرام (٤) . والقياس يسلك طريق النفي الموصل إلى الإثبات ، فإذا فرضنا أن هناك آلهة عديدين فماذا يحدث في الكائنات ؟ من الطبيعي أن يكون لكل إله شخصيته المتميزة وكيانه الخاص به بحيث لا يكون أحدهم صورة مكررة من الآخرين ، وهذا التميز لا بد أن يتبعه تميز في الأفعال والخلق والتدبير بما يناسب تميز هذه الشخصيات ، وحينئذ فلا بد من التعارض ولا بد أن يكون ما خلقه كل إله متميزا بطابع خاص يختلف عما خلقه الإله الآخر وهنا تتعارض الصفات وتتباين المقومات ويقع الاختلاف ، والخلاف يؤدي إلى أن يستقل كل إله بما خلق ، وهذا الاستقلال يستدعي أن يتميز كل إله عن الآخر ويحاول أن يتفوق عليه ، وأن يعلو عن مستواه ، وهنا يتفكك الكون وتتبدد الكائنات ويفسد نظام الأرض والسماوات ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ (٥) .

ولكن ملاحظة الواقع تبين لنا أن الكون وحدة واحدة متماسكة تخضع لقوانين محكمة ونظم دقيقة وتديرها إرادة حكيمة بصيرة طبقا لقوانين واحدة يلهمها علماء الطبيعة والفلك والطب والحياة ، فالذرة مجموعة شمسية مصغرة والأجرام الفلكية تدور حول نفسها وحول مراكز مجراتها من الغرب إلى الشرق في أفلاك بيضاوية ، وكلها خاضعة لقانون الجذب

(١) على عبد العظيم : فلسفة المعرفة في القرآن الكريم ، مجمع البحوث الإسلامية ، القاهرة ، ١٩٧٢ ، ص ٢٣٣ .

(٢) فاطر / ١٩ - ٢١ .

(٣) المؤمنون / ٩١ .

(٤) على عبد العظيم : فلسفة المعرفة في القرآن الكريم ، ص ٢٣٦ .

(٥) الأنبياء / ٢٢ .

والدفع ﴿ وَكُلٌّ فِي فَكِّ يَسْتَحُونَ ﴾ ^(١) ، ﴿ الَّذِي خَلَقَ مَبْنَعًا مَنَافِعَ طَبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ
الرُّحْمَنِ مِن تَفَافُوتٍ ﴾ ^(٢) .

ما دامت هذه الوحدة الحكيمة ماثلة أمام البصائر والأبصار ، فالقياس المنطقي يؤدي
إلى إثبات القضية وهي وحدانية الإله ^(٣) .

إن القياس الذي تتسابق إلى ميدانه عقول العلماء وعن طريقه يتم إدراك أسرار
الشريعة ، لا يتم ولا تظهر ثمراته إلا بوجود ركنه العظيم وهو العلة ، ولكن مجرد وجود
الجامع في الأصل وفي الفرع لا يكفي ، بل لابد من أدلة تدل على تحقق وجود الجامع بين
الأصل والفرع ، وهذا ما يسميه الأصوليون (مسالك العلة) وهي قسمان : مسالك سمعية ،
وأخرى عقلية . والمتتبع للكيسمة المذكورة في كتب الفقه الإسلامي يجد أكثرها ثابتا بالمسالك
العقلية ^(٤) . ومن أهم هذه المسالك (المسبر والتقسيم) ومعناه : حصر الأوصاف التي توجد
في الأصل (المقيس عليه) والتي تصلح للعلة في بادئ الرأي ثم اختبارها بابطال ما لا
يصلح ، فيتعين الباقي للعلة ^(٥) .

ومثالنا من القرآن الكريم : ﴿ أَمْ خَلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴾ ^(٦) . ففي هذه
الآية حصرت الأوصاف في ثلاث بالتقسيم الصحيح :

الأولى : أن يكونوا خلقوا من غير شيء - أي دون خالق أصلا .

الثانية : أن يكونوا خلقوا أنفسهم .

الثالثة : أن يكونوا خلقهم خالق غير أنفسهم .

ولا شك أن القسمين الأولين باطلان ، وبطلانهما ضروري كما ترى ، فلا حاجة إلى
إقامة الدليل عليه لوضوحه .

والثالث : هو الحق الذي لا شك فيه وهو أنه تبارك وتعالى خالقهم المستحق منهم أن
يعبدوه وحده ، وقد حنف في الآية لظهوره ^(٧) .

(١) يس / ٤٠ .

(٢) الملك / ٣ .

(٣) علي عبد العظيم ، ص ٢٣ .

(٤) أحمد إبراهيم عباس الذروي : إثبات العلة الشرعية بالأدلة العقلية ، دار الشروق ، جده ، ١٩٨٢ ، ص ١٠ .

(٥) المرجع السابق ، ص ٤٩ .

(٦) الطور / ٣٥ .

(٧) الذروي : إثبات العلة الشرعية ، ص ٥٠ .

شروط الجدل والحوار :

وإذا كانت هذه هي بعض صور وأساليب الجدل والحوار ، فإن كلا منهما يستلزم توافر أسس وشروط جوهرية بدونها لا نستطيع - في المنظور الإسلامى التربوى - أن نطمئن إلى نتائجها الإيجابية فى تربية الشخصية المسلمة ، من هذه الأسس والشروط :

١- العقيدة الصحيحة : نقول العقيدة الصحيحة لأن اعتقاد الإنسان بوجود إله مسألة فطرية لا تحتاج إلى نبى ولا رسول ، إنما الذى يحتاج دائماً إلى الأنبياء والرسل هو تصحيح العقيدة فإن الفطرة - إذا تركت وشأنها - كثيراً ما تضل ، فتصور الله على غير حقيقته وتشرك معه آلهة أخرى ، وتتقدم له نتيجة لذلك بعبادة مشوهة ، ليست هي ما يفرضه الله ، فيجئ الأنبياء والرسل ليردوا الفطرة إلى سلامتها ويعطوها الدين القيم على حقيقته الربانية : ﴿ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ﴾ (١) .

وكما جاء كل نبى من قبل ليقول للناس (لا إله إلا الله) ، ﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ ، فكذلك جاء رسول الله ﷺ ليقول نفس القولة الخالدة التى تتمثل الحقيقة الأزلية : (لا إله إلا الله) ويطلب من الناس أن يعبدوه وحده دون شريك ، والمور المكية لا تتناول إلا موضوع هذه العقيدة بكل ما يستلزمه الحديث فيها من صفات ، فينبغى أن نعلم أن هذا هو حجر الأساس فى التربية الإسلامية كلها ، وفى الحياة الإسلامية كلها كذلك (٢) .

ومما له دلالة فى فلسفة التربية الإسلامية ، أن درس العقيدة لم ينقطع بانتهاء الفترة المكية ، بل استمر حتى بعد تكون الدولة المسلمة فى المدينة ، وبعد رسوخ الإيمان فى قلوب المؤمنين إلى حد القتال فى سبيل العقيدة والاستشهاد فى سبيل الله . كل الفرق أنه بعد أن كان الدرس الوحيد فى السور المكية صارت معه دروس أخرى فى المدينة من تشريعات وتوجيهات وتنظيمات وتوعية سياسية وجهود كثيرة إعدادا لمعركة لا إله إلا الله ، وأنه بعد أن كان الدرس يلقن هناك على سبيل التأسيس ، صار يلقن هنا على سبيل التذكير ، بعد أن ترسخت قواعده هناك .

ولكن استمرار تلقين الدرس للمؤمنين بعد أن آمنوا هو الأمر ذو الدلالة الهامة ، لأن معناه أن هذا الدرس لا ينتهى أبدا مهما كانت حالة المؤمن من الإيمان ، فلا بد من التذكير

(١) الروم / ٣٠ .

(٢) محمد قطب : منهج التربية الإسلامية ، دار الشروق ، القاهرة ، ١٩٨٣ ، ج ٢ ، ص ٢٥ .

الدائم حتى للمؤمنين ، والله هو خالق هذه الفطرة والعليم بممارها ومسالكتها ، وما هي في حاجة إليه لتقويمها وإصلاح ما ينحرف منها ، فإذا ظل يذكر المؤمن بالعقيدة وهو مؤمن فلأنه يعلم بشدة جاذبية المطالب والحاجات الدنيوية ، وحاجة الناس إلى الجهد الدائب لموازنة هذه الجاذبية (١) .

إن الإيمان الحقيقي وثيق الصلة بقداسة الكلمة ، والكلمة الطيبة وحدها هي التي تلتزم بالقدسية المقررة لها ، وقد أشار القرآن الكريم إلى أن الجزاء الطيب الذي ينتظر المؤمنين حقاً ، إنما هو جزاء هدايتهم في الحياة الدنيا إلى الطيب من القول الذي يوصلهم إلى الصراط السوي في الآخرة : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُنْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ، وَهُمْ إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُمْ إِلَى صِرَاطٍ الْحَمِيدِ ﴾ (٢) .

وهذا الإيمان الحقيقي هو الذي يمنح المؤمن في أحلك الأزمات طاقة كبرى من الاحتمال والثقة في الله ، تحول بينه وبين تهور اللسان أو غيظ النفس ، وفي نفس الوقت تملأ كيانه بالسكينة في وقت عصيب يكون خلاله في أمس الحاجة إلى قدر من السكينة (٣) .

٢- الثقة بالعقل : فقد جهد الفلاسفة والمفكرون في الوصول إلى خصوصية تميز النوع الإنساني عن عموم جنسه في الحيوان ، فكان النطق هو هذه الخصوصية المميزة لنوعنا ، حين يستوى مع عامة الحيوان فيما تقوم به الحيوانية من طعام وشراب وتنازل ، وما تحتاج إليه من ضرورات البقاء المادى . ومن ثم قالوا في تعريف الإنسان أنه (حيوان ناطق) واطمأن المناطقة إلى أنه تعريف جامع لكل أفراد الإنسان ، مانع لغيره من الحيوان الأعجم (٤) .

وإذ يعد القرآن البيان خصوصية مميزة للإنسان عن عامة الجنس الحيوانى ، فإنه يلفت النظر إلى أن مجرد النطق الصوتى ليس مناط إنسانيته الناطقة . ونستأنس هنا بالآيات الست التى ورد فيها لفظ (البكم) حيث يتعين فيها جميعاً أن قيمة النطق ، أو السمع والبصر ، ليست فى آلية هذه الأجهزة العضوية . فالحيوان فى عمومه المطلق ، مزود كذلك بالأسن

(١) المرجع السابق ، ص ٥٤ .

(٢) الحج / ٢٣ - ٢٤ .

(٣) محمد عبد الله السمان : القرآن والسلوك الإنساني ، سلسلة الثقافة الإسلامية ، القاهرة ، ١٩٧٣ ، ص ٣٢ .

(٤) عائشة عبد الرحمن : مقال فى الإنسان ، دار للمعرف ، القاهرة ، ١٩٦٩ ، ص ٥٦ .

وأذان وعيون ، وإنما مناطها فى أن يكون النطق الإنسانى بيانا ، وسمعه وعيا وإدراكا ، وبصره تمييزا وهدى ، وإلا مسخت إنسانية الإنسان فهبط إلى دونية الدواب العجماء : ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ (١).

إن العقل هو بمثابة الدليل فلولاها لما أجدى سمع ولما أغنى بصر ، فسمع بلا عقل هو لحمة صماء ، وبصر بلا عقل هو جنون مطبق ، وتستطيع أن تجعل هذا الدليل يودى مهامه على أحسن ما يرام باتباعك لوازم معينة مثل :

- حسن التلقى للمسموع والمنظور والمحسوس .
- والتفكير بحرية دون تأثير من الهوى .
- والحرص الشديد على ثمرة الأداء العقلى .
- وإغناء هذا الجهاز بالعلم المتواصل .

وتستطيع أن لا يودى مهامه بشكل طبيعى بمجانبتك اتباع تلك اللوازم . وحتى إذا أدى العقل مهامه على أحسن ما يرام وأعطاك حصيلة التفكير بمسألة ما فإنك قد تقف أمام خيارين : أولهما أن تنزل عند مقتضى الحصيلة تعاملنا منك مع الأشياء بحرص وموضوعية وسداد ، وثانيهما أن ترفض النزول عند مقتضى حصيلة التفكير إصغاء لبقية هوى وتأثرا ببريق هوى وتأثرا ببريق شهوة . فى الخيار الأول تكون متبعا للحق بإقدام لا تبالى معه بشئ ولو كان نفسيا لأنه لا أنفس من اتباع الحق ، وفى الخيار الثانى تكون مفضلا الذى هو أدنى على ما هو خير وهذا ضلال مبين (٢) .

أما إعاقة دور العقل فهى معضلة يوقع المغفلون أنفسهم فيها حاسبين أنهم قد أحسنوا التصرف فتراهم لا يسمحون لعقولهم باستقبال شئ من المسموع والمرئى والمحسوس إلا بعد تعكيره كأن يتلقونه محاطا بحكم مسبق غير صحيح أو محملا بقدر معين من مشاعر الضيق والتنمر والكره والاستتقال .

فكل بالغ من الأنس والجن ، من الذكور والإناث ، ممن أمر الله تعالى ونهاه ، ووعد به بإرسال النذر ، وإنزال الكتب ، وآثار آيات التدبير ، فحجة العقل لازمة له ، وإذ أنعم الله

(١) الأعراف / ١٧٩ .

(٢) شاكر عبد الجبار : المنهج العلمى للاعتقاد ، مكتبة القدس ، بغداد ، ١٩٨٤ ، ص ٦٣ .

سبحانه بالعقل عليه ، ومعرفة البيان ﴿ لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (١) ، ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ ﴾ (٢) .

٣- الأمن الاجتماعي : فإذا كان الجدل والحوار نشاطا عقليا ، إلا أنه يتم في وسط له شروطه المادية الأساسية ، فهو يتم بين بشر لهم أجسام لها احتياجاتها البيولوجية التي لا قوام لها إلا بها ، ومن هنا قيل أن العقل يتعطل عمله إذا كانت المعدة خاوية تماما فترة طويلة ، وأن التفكير يهتز إذا كان جسم صاحبه يعاني من فقر الدم والهزال الشديد ، وهذا وذلك يجعلنا نؤكد هنا حاجة الإنسان إلى ما يمكن تسميته (بالأمن الاجتماعي) الذي لا يمكن أن يتوافر إلا بتوافر ما يسمى (بالتكافل الاجتماعي) .

ويقصد بالتكافل الاجتماعي في معناه اللفظي أن يكون أحاد الشعب في كفالة جماعتهم وأن يكون كل قاصر أو ذى سلطان كفيلا في مجتمعه يمدّه بالخير ، وأن تكون كل القوى الإنسانية في المجتمع متلاقية في المحافظة على مصالح الأحاد ونفع الأضرار ثم في المحافظة على نفع الأضرار عن البناء الاجتماعي وإقامته على أسس سليمة (٣) . ولعل أبلغ تعبير جامع لمعنى التكافل الاجتماعي قوله عليه الصلاة والسلام : (المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا) ، وقوله عليه السلام (مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى) .

ومن المأثور عن رسول الله ﷺ قوله : (أيما أهل عرصة أصبح فيهم أمرؤ جائعا ، فقد برئت منهم نمة الله تبارك وتعالى) (٤) . والعرصة : هي البقعة الواسعة من الأرض ، وأهلها هم أصحابها أو سكانها الذين يقيمون فيها ، فعدت موطناً لهم يعرفون بها أو تعرف بهم ، وينتمون إليها أو ينتسب إليهم .

وقد تفرق الناس في البقاع الأرضية منذ أجيال محيقة شعوبا وقبائل ، فمن البقاع ما سكنه قبيلة ، ومنها ما سكنه شعب بأسرة ، ويكون من معنى الحديث على هذا : أيما قبيلة أو شعب أصبحوا وفيهم جائع ، فقد برئت منهم نمة الله ورسوله ، والنمة هي الأمن والعهد والضمنان ، ونمة الله هي عهده الذي يعصم لدمائهم وأموالهم ، فكان الذين أطاعوا شح أنفسهم

(١) الأنفال / ٤٢

(٢) التوبة / ١١٥

(٣) محمد أبو زهرة : التكافل الاجتماعي في الإسلام ، وزارة التربية والتعليم ، القاهرة ، ١٩٨٢ ، ص ٥ .

(٤) أحمد وأبو يعلى والبخاري والحاكم .

وتخلوا عن رعاية ذوى الحاجة منهم حتى أصبحوا جائعين ، قد نقضوا عهدا بينهم وبين الله ، واستوجبوا به ذلك الحكم الخطير الذى أعلنه رسول الله ﷺ (١) .

ومن الواضح أن الله سبحانه ، إذ خلقنا من الأرض وكتب لنا الحياة فيها لم يتركنا بمضيعة نهلك فى مجاهلها من الجوع ، بل أودع بطنها وظهرها ، وهواءها وماءها وشمسها ألوانا من الثمرات وكنوزا من الخير ظاهرة وباطنة ، ومن البديهي أنه سبحانه لم يجعل ذلك - أو شيئا منه - لفئة من الناس دون أخرى ، فالكل عباده وهم فى الحاجة إلى ضرورات الحياة سواء ، ولا فضل فى ذلك الرزق لأحد على أحد (٢) .

يقول سبحانه وتعالى : ﴿ وَكَلَّا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ نُورٌ فَضَلَّ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ (٣) .

هكذا أَرَدْنَا الخالق ، وسبحان من لا راد لإرادته ، فالأصل فى الخلق البشرى هو الاختلاف شكلا ولونا ولسانا وقدرة ، والأصل فى الحياة الأدمية هو التنوع والتعدد والتدافع بين الناس وسائر الخلق ، والأصل فى عطاء الله هو التباين المتداخل فى الأرزاق ، ومن هذه الأصول - رغم قيامها على الاختلاف والتباين والتدافع - يقوم التكامل فى المجتمع الإنسانى وتدور فيه عجلة الحياة الأدمية تماما مثل تروس الساعة التى يدور كل ترس منها فى اتجاه مغاير لاتجاه الآخر لتدور جميعها بالتوالى حتى تتحرك العقارب وتصنع الزمن (٤) .

٤- الأمن الفكرى : وذلك بأن يكون للإنسان الحق فى أن يفكر تفكيراً مستقلاً فى جميع ما يكتنفه من شئون وما يقع تحت إدراكه من ظواهر ، وأن يأخذ بما يهديه إليه فهمه ويعبر عنه بمختلف وسائل التعبير . وقد أقر الإسلام هذا الحق فى أوسع نطاق فمنح كل فرد الحق فى النظر والتفكير وإبداء رأيه عن أى طريق شاء (٥) .

ويدخل فى الحرية الفكرية التى حرص الإسلام على توفيرها ، ما يسمونه بالحرية العلمية وحرية التفكير العلمى ، وهى أن يكون لكل فرد الحق فى تقرير ما يراه فى صدد ظواهر الفلك والطبيعة والحيوان والنبات والإنسان ، والأخذ بما يهديه إليه تفكيره وما يقتنع

(١) البيهى الخولى : الثروة فى ظل الإسلام ، دار القلم، الكويت ، ١٩٨١ ، ص ٢١٧ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٢١٨

(٣) البقرة / ٢٥١ .

(٤) أحمد سعيد : لا للقر فى ظل القرآن ، دار الهلال، القاهرة ، سلسلة كتاب الهلال (٤٣٣) يناير ١٩٨٧ ، ص ٧٤ .

(٥) على عبد الواحد وفى : الحرية فى الإسلام ، دار المعارف ، القاهرة ، سلسلة اقرأ (٣٠٤) ، يوليو ١٩٨٠ ،

بصحته من نظريات والتعبير عن رأيه بمختلف وسائل التعبير . فالإسلام لم يحاول مطلقاً أن يفرض نظرية علمية معينة بصدد أية ظاهرة من هذه الظواهر ، ولم يعرض القرآن ولا السنة الشريفة لتفاصيل هذه الأمور ، وكل ما فعله القرآن في هذه الناحية أنه استحث العقول على النظر في ظواهر الكون وحفز الناس على التأمل في هذه الثنونات واستنباط قوانينها للهامة ، وأثار في نفوسهم حب الاستطلاع حيال الأمور التي لا تثير الانتباه بطبيعتها لتكرار حدوثها ومسيرها على وتيرة واحدة وإيلاف الناس النظر إليها كثنونات الليل والنهار والشمس والكواكب وتتابع الفصول وتتاسل الحيوانات وتكاثر النبات وطفو بعض الأجسام على الماء ونزول المطر .. وما إلى ذلك من معائل العلوم والفنون ، فبين لهم أن هذه الأمور جديرة بالتأمل ، وأن فيها مجالاً كبيراً للنظر والعبارة والبحث العلمي (١) .

ولا أدل على ذلك من أن القرآن في إجابته عن سؤال وجه إلى الرسول ﷺ عن مراحل القمر وأسباب تزايد قرصه وتناقصه ، قد تحاشى أن يدخل في تفاصيل هذه الأمور الفلكية وقوانينها ، حتى لا يفرض نظرية علمية على العقول ، وحتى لا يحجر على الأذهان النظر في هذه الأمور ، واكتفى أن يذكر بعض فوائد القمر ، وأنه يحدد مواقيت الشهور والأيام التي تؤدي فيها شعائر الحج . وفي هذا السؤال يقول الله تعالى (يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ) ، فكأنه يقول لهم يكفي أن تعلموا فيما يتعلق بصللة الأهلة بشنون الدين أنها مواقيت للناس في الشهور الأولى والصيام وشعائر الحج ، أما ما وراء ذلك من أسباب تزايد قرص القمر وتناقصه وخسوفه أحياناً أو حجبته عن النظر وعلاقته بالشمس والأرض .. أما هذه الأمور وما إليها فأترك لعقولكم كامل الحرية في بحثها والاهتداء إلى كنهها وأسبابها (٢) .

وبهذه الروح القرآنية ، بارك الرسول ﷺ مبعوثه إلى اليمن (معاذ بن جبل) حكمته

مرتين :

الأولى : حين أدرك أن من المحتمل أن تعرض له وللمسلمين قضايا ومواقف ومشكلات لم يتضمن القرآن ولا السنة ذكرها لها ، ولا حكماً فيها .

والثانية ، حين جعل اجتهاده ورأيه تجاه هذه القضايا بديلاً للقرآن وللمسنة فقال :

(أجتهد رأيي ، ولا آلو ..) إجابة عن سؤال الرسول له : (ماذا يفعل إذا لم تجد الحكم في

(١) المرجع السابق ، ص ٨١ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٨٣ .

كتاب الله ولا فى سنة رسوله)^(١) . ولم يقل (معاذ) مستكرا : وكيف يخلو القرآن والسنة من قضية تهم المسلمين ، والله سبحانه يقول : (مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ) . ولم يقل معاذ أنه سيكلف القرآن والسنة ضد طبعها حتى يولد الحكم المنشود ، بل قال : (أجتهد رأى لا آلو) مما أَرْضَى الرسول عنه وحياء قائلًا : (الحمد لله الذى وفق رسول رسول الله لما يرضى الله ورسوله) .

٥- السببية : ومن خلال التمعن فى كتاب الله نجد كيف منحت آياته البيّنات العقل المسلم رؤية تركيبية للكون والحياة والإنسان والوجود .. تربط ، وهى تتأمل وتبحث وتعاین وتفكر ، بين الأسباب والمسببات .. تسعى إلى أن تضع يدها على الخيط الذى يربط بين الظواهر والأشياء فى هذا الحقل أو ذاك ، وفى هذه المساحة أو تلك . لقد أراد القرآن الكريم أن يجتاز بالعقل العربى مرحلة النظرة التبسيطية ، المسطحة ، المفككة التى تعاین الأشياء والظواهر كما لو كانت متقطعة معزولة منفصلا بعضها عن بعض . وهى خلال ذلك لا تملك قدرة على الجمع والمقارنة والقياس والنقاط عناصر الشبه وعزل عناصر الاختلاف . لا تملك إمكانية التركيب والاختزال والتركيز للوصول إلى الدلالات النهائية للظاهرة من خلال معاينة ارتباطاتها وعلاقتها بالظواهر الأخرى^(٢) .

ولقد تمكن القرآن الكريم بطريقة المستمرة على العقلية التبسيطية أن يعيد تشكيلها لتبعث من جديد بالصيغة التى أرادها لها : عقلية تركيبية ، تملك القدرة على الروية الاستشراقية التى تطل من فوق على حشود الظواهر بحثًا عن العلائق والارتباطات ، ووصولًا إلى الحقيقة المرتجاة . بل إن إحدى طرائق القرآن المنبثّة عبر سوره ومقاطعته من أقصاها إلى أقصاها هى : التأكيد على ضرورة اجتماد هذه الروية السببية للظواهر والأشياء من أجل الوصول إلى معجزة الخلق ووحدانية الخالق سبحانه ، إذ بدون هذه القدرة على الربط بين الأسباب والمسببات فإن العقل المؤمن لن يكون قادرًا على التحقق بالقناعات الكافية ، ولن يكون بمقدور آيات الله المنبثّة فى الطبيعة والعالم والوجود أن تحدث فينا هزة الإيمان العميق المتمخض دوماً عن اكتشاف الارتباط المحتوم بين معجزة الخلق وبين الخالق^(٣) .

(١) خالد محمد خالد : دفاع عن الديمقراطية ، دار ثابت ، القاهرة ، ١٩٨٥ ، ص ٢٢٣ .
(٢) عماد الدين خليل : حول إعادة تشكيل العقل المسلم ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٩٨٥ ، ص ٤٩ .
(٣) المرجع السابق ، الصفحة نفسها .

ومبدأ ثبات السنن الإلهية ينفي عن العقلية الإسلامية ما يقال من تعطيلها للأسباب ، فكما لا تتعلق المشيئة العليا بنقض سنته تعالى في خلقه ، لا تتعلق بنقض سنن سنته الثابتة التي يجرى عليها نظام الكون ، ومنها قانون السببية وقوانين الطبيعة : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ، إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ ﴾ (١) ، لكنه سبحانه لم يشأ إلا أن تمضي سننه الكونية ثابتة مطردة ، لا تنقضها المشيئة العليا (٢) .

ألا وأن المؤمنين منا لا يلقون بأيديهم إلى التهلكة ، ولا يتصورون أن يتوكل على الله يعطل الأسباب كما يزعم فيهم البعض بقولهم " أننا إذا توكلنا على الله فلن نخلف الحرب ولا القنبلة الذرية ولا المرض . الميكروب لا يضر ولكن الله هو الضار النافع ، وهو الذي خلق العقرب والسم والوردة ، وهو الذي ينشر العبير وينشر السم في العروق . هو مناط الهلاك والنجاة لا راد لقضائه ، هو الفاعل الوحيد وكلنا أدواته " .

ويقود أحدنا سيارته ، بعد أن يطمئن إلى كفاية الوقود فيها وسلامة أجهزتها وعجلاتها ، لا يكل هذا كل إلى الله الذي عليه يتوكل المؤمنون ، بل يسأله تعالى السلامة من أخطار الطريق ، بعد كل الحرص عليها والأخذ بأسبابها . ومنهم من يسافر على الطائرة ، والله معه ، ثم لا يخطر على باله أن يقذف بنفسه منها ، وهي في الجو ، دون مظلة واهية . ومنهم من يركب السفينة ، باسم الله مجريها ومرساها ، فلا يستغنى عند الخطر عن حزام النجاة وقاربها ، غير مبال باليمع جهله بالسباحة . في هذا كله يأخذ المسلمون بالأسباب ويستعينون بالله (٣) .

٦- المعرفة : فالمحاورة والمناقشة والمجادلة وما إلى ذلك من عمليات عقلية مشتركة

لحمتها الأساسية (معلومات) لا بد أن تكون صادقة ، وآيات القرآن الكريم مليئة بالحث على ضرورة توافر هذا الشرط الهام ، فالإيمان الذي لا تتوافر لديه المعلومات اليقينية ربما يكون معذورا في انحرافه عن طريق الحق ، أما إذا أتاحت له الفرصة للوقوف على حقيقة الأمر ، فلا عذر له بعد ذلك ، بل إن الإيمان مطالب أن يسعى وراء المعرفة الحققة حتى يستبين طريق الحق ، ولا يعتز بالجهل إلا إذا كان الحصول على المعلومات الحقيقية أمرا فوق

(١) الشورى / ٣٣ .

(٢) عائشة عبد الرحمن : الشخصية الإسلامية ، دراسة قرآنية ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٧٣ ، ١٤٠ .

(٣) المرجع السابق ، ص ١٤١ .

طاقته : ﴿ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وِكْيٍ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ (١) . بل يصل الأمر بالنسبة لمن يسير في طريق الهوى رغم توافر المعلومات الصحيحة بأن يوصف من لدن الله عز وجل بالظلم ﴿ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ (٢) .

وتجئ الآيات صريحة مباشرة ، بأن الجدل ينبغي أن يكون بناء على معرفة وعلم ، وسخرية من هؤلاء الذين يجادلون بغير علم ﴿ فَلَمْ تَحْجُبُوا فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ ﴾ (٣) . وقال عز وجل : ﴿ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ لِنُظْرِيهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴾ (٤) ، وبين أن الضمير الدافع إلى الخير ، الوازع عن الشر ، المراقب له ، الحريص على مرضاته ، هو ضمير العلم المستتير الخبير بربه : ﴿ أَمْنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ (٥) .

والعلم الذي يقبل المسلم عليه وتستفتح أبوابه بقوة ويرحل لطلبه من أقصى المشارق والمغارب ، هو المقصود بمطلق المعرفة التي لا يشترط فيها إلا سلامة المنهج وشرف الغاية فكل ما يوسع آفاق النظر ، ويزيح السدود أمام العقل النهم إلى المزيد من العرفان ، وكل ما يوثق صلة الإنسان بالوجود ، ويفتح له آمادا أبعد من الكشف والإدراك ، وكل ما يتيح له السعادة فى العالم ، والتحكم فى قواء ، والإفادة من ذخائره المكنونة ، ذلك كله علم ينبغي السطلع إليه والتضلع فيه ويجب على المسلم أن يأخذ بسهم منه .. وهذا الشمول دلت عليه الآيات والسنة (٦) .

ويخطئ المسلم إذا ظن أن حسن الحوار والجدل يكفيه فيها أن يقتصر على العلم الدينى وحده ، ووجه الخطأ هنا أن علوم الكون والحياة ونتائج البحث المتواصل فى ملكوت السماء والأرض لا تقل خطرا عن علوم الدين المحضه ، بل قد يرتبط بها من النتائج ما يجعل معرفتها أولى بالتقديم من التعمق فى علوم الشريعة ، وحسبنا أن القرآن الكريم عندما

(١) البقرة / ١٢٠ .

(٢) البقرة / ١٤٥ .

(٣) آل عمران / ٦٦ .

(٤) العنكبوت / ٤٣ .

(٥) الزمر / ٩ .

(٦) محمد الغزالي : خلق المسلم ، دار الكتب الحديثة ، القاهرة ، ١٩٧٤ ، ص ٣١٧ .

نوه بفضل العلم وجلال العلماء إنما عنى العلماء الذين يعرفون عظمة الخالق من عظمة الخلق، وإنما عنى العلم الذى ينشأ من النظر والنبات والحيوان وشئون الطبيعة الأخرى (١).

قال : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودَ . وَمِنَ النَّاسِ وَالثَّوَابِ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾ (٢) . وقال : ﴿ وَمِنَ آيَاتِهِ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَاخْتَلَفَ الْأَلْسِنَةَ وَاللُّغَةَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ ﴾ (٣) .

٧- المسئولية : ولكيلا ييضى الناس بعضهم على بعض فى موارد الفكر والاجتهاد داخل الحدود العامة للعقيدة الدينية طرح الإسلام نظرية أخلاقية فريدة فى أصل الطبيعة الإنسانية ليفتح باب المغفرة أمام الإيمان ، هذه النظرية تقوم على افتراض (الضعف) أساسا للطبيعة الإنسانية ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخَلَقَ الْإِنْسَانَ ضَعِيفًا ﴾ (٤) . ومن تقرير الضعف أساسا للسلوك الإنسانى ولكيلا ينصب الناس أنفسهم حججا بعضهم على بعض ، شرع الإسلام مبدأ أخلاقيا عاليا آخر هو المسئولية الأخلاقية فى الفرد نفسه ليحملها طوعا واختيارا بعد أن تبين له الحق (٥) : ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ﴾ (٦) ، ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ (٧) ، وبهذا أسقط حجية الناس بعضهم على بعض ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ﴾ (٨) . ومن إسقاط حجية الناس بعضهم على بعض تبلور مبدأ المسئولية الفردية على السلوك بما لا يحتمل الشك والارتباك ﴿ وَكُلُّ إِنْمَانٍ أَلَزَمْنَاهُ طَائِرَةً فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا ، أَقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ (٩) . ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عْتَلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ (١٠) .

(١)

(٢) فاطر / ٢٧ ، ٢٨ .

(٣) روم / ٢٢ .

(٤) النساء / ٢٧ .

(٥) محمد جواد رضا : الفكر التربوى الإسلامى ، دار الفكر العربى ، القاهرة ، ١٩٨٠ ، ص ٩ .

(٦) البقرة / ٢٥٦ .

(٧) الإسنان / ٣ .

(٨) المائدة / ١٠٤ .

(٩) الإسراء / ١٣ ، ١٤ .

(١٠) البقرة / ١٢٣ .

إن ترجمة هذا كله بالنسبة لموضوعنا أن الإسلام لا يقبل من المسلم أن يلغى عقله ليجرى على سنة آبائه وأجداده ولا يقبل منه أن يلغى عقله خضوعاً لمن يسخره باسم الدين فى غير ما يرضى العقل والدين ، ولا يقبل منه أن يلغى عقله رهبة من بطش الأتقياء وطغيان الأتداء ، ولا يكلفه فى أمر من هذه الأمور شططا لا يقدر عليه ، إذ القرآن الكريم يكرر فى غير موضع أن الله لا يكلف نفسا ما لا طاقة لها به ، ولا يطلب من خلقه غير ما يستطيعون . ﴿لَا يَكْفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تَأْخُذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِمْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ (١) .

إن الإسلام يقول : عليكم أن تيروا بالآباء ، ولكن البر معهم غير الضلال معهم على غير بصيرة ، والعقلاء هم الذين يعرفون موضع هذا وموضع ذاك . وعليكم أن تسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون ، ولكن أهل الذكر لا ينتفعون بذكرهم ولا ترجى منهم التذكرة لغيرهم ، ومن لم يكن من أهل الذكر فليس بعسير عليه أن يكون من المميزين بين الصادقين منهم والمنافقين وبين سيرة الرشد والاستقامة وسيرة الغواية والاعوجاج (٢) .

كما يؤكد علينا الإسلام أن علينا طاعة ولاة الأمر منا ، ولكن لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق ، ولا خير فى فتنة يضرها العصيان على غير بصيرة ، ومن لم تكن له القدرة على الطاعة ، ولم يكن فى عصيانه أمان ، فله الهجرة كمتسع يأوى إليه ما استطاع .

٨- الصدق : فشطر كبير من العلاقات الاجتماعية والمعاملات الإنسانية يعتمد على شرف الكلمة فإذا لم تكن الكلمة معبرة تعبيراً صادقا عما فى نفس قائلها ، لم نجد وسيلة أخرى كافية نعرف فيها إرادات الناس ونعرف فيها حقيقة أخبارهم :

كيف يوثق بنقل المعارف والعلوم إذا لم يكن الصدق أحد الأسس الحضارية التى يقوم عليها المجتمع الإنسانى ؟

كيف يوثق بنقل الأخبار والتواريخ إذا لم يكن الصدق أحد الأسس الحضارية التى يقوم عليها بناء المجتمع ؟

كيف يوثق بالوعود والعهود ما لم يكن الصدق أحد أسس التعامل بين الناس ؟

(١) البقرة / ٢٨٦ .

(٢) عيسى محمود العقلا : التفكير فريضة إسلامية ، دار القلم ، القاهرة ، ط ٦ ، ص ٣٢ .

كيف يوثق بالدعاوى والشهادات ودلائل الإثبات القولية ما لم يكن الصدق أحد أسس التعامل بين الناس (١) ؟

وقد قسم الله سبحانه الناس إلى صادق ومنافق ، فقال تعالى : ﴿ لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيَعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ﴾ (٢) . والإيمان أساسه الصدق ، والنفاق أساسه الكذب فلا يجتمع كذب وإيمان إلا وأحدهما يحارب الآخر . وأخبر الله سبحانه وتعالى : ﴿ قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمٌ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْ ذَلِكَ الْقَوْرُ الْعَظِيمِ ﴾ (٣) .

وقال تعالى : ﴿ وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (٤) . فالذي جاء بالصدق هو من شأنه الصدق في قوله وعمله وحاله ، فالصدق في الأقوال ، استواء اللسان على الأقوال كاستواء المنبلة على ساقها ، والصدق في الأعمال ، استواء الأفعال على الأمر والمتابعة ، كاستواء الرأس على الجسد ، والصدق في الأحوال ، استواء أعمال القلب والجوارح على الإخلاص ، واستفراغ الوسع ، وبذل الطاقة . ومن هنا فقد أوصى الإسلام أن تفرس فضيلة الصدق في نفوس الأطفال حتى يشبوا عليها وقد ألفوها في أقوالهم ، فمن عبد الله بن عامر قال : دعيت أمي يوما ورسول الله ﷺ قاعد فسى بيتنا ، فقالت : تعال أعطيك ، فقال لها ﷺ : (ما أردت أن تعطيه) قالت : أردت أن أعطيه تمرا ، فقال لها : (أما أنك لو لم تعطه شيئا كتبت عليك كذبة) (٥) ، وعن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال : (من قال لصبي تعال ، هاك .. ثم لم يعطه فهي كذبة) (٦) .

فها هنا نرى كيف يعلم الرسول ﷺ الأمهات والآباء أن ينشئوا أولادهم تتشبه بتقديمون فيها الصدق ويتزهون عن الكذب . ولو أنه تجاوز عن هذه الأمور وحسبها من التوافه الهينة لخشى أن يكبر الأطفال ، وهم يعتبرون الكذب ذنبا صغيرا ، وهو عند الله عظيم . وقد فشت الصراحة في تحرى الحق ورعاية الصدق حتى تناولت الشؤون المنزلية الصغيرة (٧) .

(١) عبد الرحمن حسن حبيكة الميداني : الأخلاق الإسلامية ، دار القلم ، بيروت ، ١٩٧٩ ، ج ١ ، ص ٤٨٥ .

(٢) الأحزاب / ٢٤ .

(٣) المائدة / ١١٩ .

(٤) الزمر / ٣٣ ، ٣٤ .

(٥) أبو داود وأحمد .

(٦) محمد الغزالي : خلق المسلم ، ص ٣٥ .

(٧) المرجع السابق ، ص ٣٦ .

الآثار التربوية :

على الرغم من تباين واختلاف التعريفات التي ساقها المربون والفلاسفة للتربية ، إلا أن مما يتفق عليه على وجه التقريب أنها تؤدي بالضرورة إلى عملية تغيير في شخصية الإنسان ، ويكون الاختلاف هو في مدى التغيير ومجالاته ودوافعه وأغراضه .

كذلك ما هو ضروري الاتفاق عليه أن عملية التغيير لا بد أن تتبنى على (علم) (معرفة) فإذا تأكد لنا أن العلم وإن المعرفة ليسا مجرد (كم) من المعارف والمعلومات والحقائق ، إنما هو - بالإضافة إلى ذلك - منهج وطريقة ، يصبح المعول الأساسي في عملية التربية هو مسألة (المنهج) لا بالمعنى المتداول بين اختصاصى التربية ، وإنما بالمعنى المتداول بين علماء المنطق ومناهج البحث .

ولهذا فقد كان اختيارنا لقضية الجدل والحوار ، إنما هو بدافع منهجى علمى ، مما يحتم علينا بعد أن جلنا في صفحات متفرقة من الفكر الإسلامى فى مصدره الأساسى وهو القرآن الكريم بحثاً عن صور وأساليب الجدل والحوار وكذلك محاولة الكشف عن بعض الشروط والأسس التى ينبغى أن يقوموا عليها ، أن نتوقف بعض الشيء فى محاولة أخرى للكشف عما تؤدي إليه عملية التربية التى تقوم على الجدل والحوار من آثار إيجابية فى تربية الشخصية المسلمة مما يعينها على أن تكون بالفعل طاقة عمل وبناء ، وقوة تطوير وتقدم .

١- الفهم والافتناع : فالتغيير فى السلوك لا يمكن أن يستمر بمجرد القهر الخارجى والإرغام على إتيان فعل من الأفعال ، وإنما هو ذلك الذى ينبثق من (جوانبه) الإنسان ، وهذا لا يتم إلا عن طريق الفهم والافتناع ، يقول عز وجل : ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرًّا وَمُسْتَوْدَعًا قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴾ (١) .

ما أكثر آيات الله تعالى ، فمنها المشاهد الماثوث فى هذا الكون العظيم ومنها المسطور المفصل فى كتابه الخالد ولكنها لقوم يفهمون باهتمام وتطلع وحرص وليست لقوم يستلقت عقولهم ساقط الكلام وتافه المتاع وحصى الطريق فيما هم لا يعيرون كلام الله اهتماما ولا يحركهم إلى ما وراءه تطلع ولا يتلمسون مصيرهم الأبدى بحرص (٢) .

(١) الأنعام / ٩٨ .

(٢) شلكر عبد الجبار : المنهج العلمى للاعتقاد ، ص ١١٢ .

والإيمان الذي يريد أن يفهم حقاً ، ينظر إلى النفس الواحدة مثلاً كيف تتكاثر ، فخلية تمتدود صلب الرجل ثم تستقر في رحم أنثى فتتلاقح ويكون من بعد إنسان آخر أو أنثى وفق قانون الله الضابط لتوازن الجنس البشري ، وبهذا المنوال يتوالى التكاثر فيكون الناس بصفات تفصيلية تتباين وتتشكل بين المرء وأبيه والأم وبناتها والأمسر والقبائل والشعوب والأمم حتى يكون المجتمع البشري بالنسق الذي يتناغم مع حياة الأرض على أروع طرز .

إنسان ينظر إلى خلق الله كيف تكاثر ندى البشر من نفس واحدة فيحس بعظمة الخالق عز وجل مولياً وجهه تلقاء منهجه استمساكاً به وخضوعاً ، لهو الفطن نو الفهم الذي تربي إسلامياً .

وإذا كان الله عز وجل قد أنكر على الإيمان الجدل عندما يكون مما رآه فاحشة في الحق الجلى والآيات البينات فيما تعبر عنه الآية الكريمة : ﴿جَادِلُونَا فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾ (١) ، فإن جدال الإنسان عندما يكون عن حاجة لاقتناع ، فهو أمر مطلوب ومرغوب ، ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ (٢) . ﴿وَلَا تَجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأَنْزَلَ إِلَيْكُمُ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (٣) .

وقد جادلت امرأة مسلم ، رسول الله ﷺ في زوجها حين ظاهر منها فلما لم تجد لدى رسول الله ما يقنعها ويفرج كربها اشتمت إلى الله ، فسمع سبحانه قولها ونزلت آيات المجادلة : ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ، الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُم مِّنْ نِّسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْتَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا﴾ (٤) .

ويروى عن (عمر) رى الله عنه ، أنه ﷺ كان إذا دخلت عليه تلك التي جادلته ، أكرمها وقال : قد سمع الله لها (٥) .

(١) الأنفال / ٦

(٢) النحل / ١٢٥

(٣) العنكبوت / ٤٦

(٤) المجادلة / ١ - ٢

(٥) عائشة عبد الرحمن : مقال في الإيمان ، ص ٩٦ .

والدعوة بالحكمة هي التربية التي تعتمد على وسائل الإقناع الفكري المنطقي الحكيم ، بالحجج والبراهين المثبتة للحقائق ، وتكون الحكمة باتخاذ الأساليب الملائمة للحالة الفكرية والنفسية التي عليها المستهدفون بالتربية .

وللمربين في هذا المجال أصول وقواعد استخلصوها من تجارب الحياة ومن الدراسات النفسية والنظرية والتطبيقية ، ونلاحظ أن الإسلام يدعو إليها بشكل عام ويعرض طائفة من جزئياتها ، كما إنه لم يفته أن يقدم لنا من أمثلتها نماذج رفيعة قام بها النخبة الممتازة من الدعاة إلى الله ، وهم الرسل عليهم الصلاة والسلام ، ونماذج أخرى قام بها بعض المرابين الذين تخرجوا في مدارس الدعوة التي أسسها الرسل كالنموذج التربوي الذي قصه لنا القرآن عن الحكيم لقمان في موعظته لابنه ، قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ، وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ (١) .

فمن حكمة لقمان في موعظته لابنه أنه حينما نهاه عن الشرك بالله قرن له ذلك بالدليل المقنع المؤكد ، فقال له : ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ ومن بديهيات العقول أن الظلم قبيح ، وعاقبته وخيمه ، ومن أدرك هذه الحقيقة اكتسب قناعة كافية تجعله يخشى خشية كبيرة من الشرك بالله (٢) .

وإذا كانت الفكرة التي تقوم على الاقتناع والفهم هي الأقرب إلى قلب ووجدان وعقل الإنسان ، فإنها أيضا ترسخ في نفسه رسوخا يجعلها لا تهتز للعوامل الطارئة ، ويتحمس .

٢- النمو العقلي : فمن شأن الحوار والجدل أن يتيح للمتعم الفرصة لأن يقلب الفكرة على وجوهها المختلفة ، وتحثك أفكاره بأفكار الآخرين ، وعندئذ قد يكتشف جوانب ناقصة كانت خافية عليه ، وقد يكتشف أخطاء كان يظنها صوابا ، فيعمد إلى تصحيحها ، وقد يكتشف أن الرأي الآخر على درجة من الجودة أو الصواب والصحة أكثر من رأيه هو ، وكل هذا من شأنه بطبيعة الحال أن يتيح له فرصا متعددة للنمو العقلي والتطور الفكري .

وإذا كانت عملية النمو عملية إيجابية ، كان من الضروري أن تتبنى على أسس سليمة ، ومن هنا جاءت حكمة الله في هذا التشديد المتكرر على ضرورة الحذر من الظن

(١) لقمان / ١٢ - ١٣ .

(٢) الميداني : أسس الحضارة الإسلامية ، ص ٣٥٢ .

وأهمية التثبيت مما نتلقاه من أفكار وآراء ونظريات ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾^(١) ، وهى مسئولية ضخمة ، يبرز التعبير عظمتها بإفراء السمع والبصر والفؤاد فى مبدأ الأمر ليكون كل منها مسئولاً على حدة ، ثم جمعها كلها بعد ذلك وإشراكها فى المسئولية ، بهذا الجمع والتوكيد : ﴿ كُلُّ أُولَئِكَ ﴾ ، وذلك كله ليحس الإنسان بعظم التبعة وهو يقدم على الأمر ، فلا يأخذ الأمور باستخفاف ، ولا يأخذها بلا تثبيت وهو عنها مسئول^(٢) .

ولا شك فى أن الامتثال على دوام التفكير فى نواميس الكون كما يأمرنا القرآن الكريم من شأنه أن يطبع العقل بطابع من الدقة والتنظيم . ذلك أن نواميس الكون تجرى فى دقة النظر وانضباط الأحكام . إن دورة الأرض ودورة الشمس ودورة الأفلاك ليست مضبوطة بالمساعة ولا بالدقيقة ولا بالثانية ولا بغيرها .. ولكنها مضبوطة بسرعة الشعاع الذى يقطع ١٨٦ ألف ميل فى الثانية . والنظر فى هذه الدقة المذهلة يعود العقل على أن يدقق ، فكل خلل بسيط فى التفكير أو التقدير ينتج عنه أخطاء جسيمة ، لو كان يحدث مثلها فى الكون لانتقلت عقده وتهاوى ما فيه من أفلاك ، والعقل عليه - حين يرى تلك الدقة والترابط - أن يحاول ضبط أفكاره وربطها ، والوصول إلى الكليات التى تربط الجزئيات وتحكمها كما يرى فى نظام الكون الكبير^(٣) .

كذلك فإن الحرص الذى لاحظناه من التوصل بـ (السؤال) فى الحوار والجدال من شأنه أيضاً أن يكثر فرص النمو العقلى للمتعلم ، يقول عز وجل حاكياً عن إبراهيم عليه السلام : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أُولَئِمُتُؤْمِنُ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قُلُوبِي ﴾^(٤) .

إن الفكرة الشائعة أن مثل هذا السؤال إذا جاز فى القضايا الفكرية والعلمية ، فليس بجائز فى المقررات الدينية التى تقتضى التسليم المطلق . بل إن فينا من يتصورون أن مجرد مناقشة المتدين لأحد ممن يتكلمون باسم الإسلام ، جرأة وضلال . لكن هذه الآيات الكريمة

(١) الإسراء / ٣٦ .

(٢) محمد قطب : منهج التربية الإسلامية ، ج ١ ، ص ٩٣ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٩٤ .

(٤) البقرة / ٢٦٠ .

تؤكد لنا بما لا يدع مجالاً للشك أن الله سبحانه لم يغضب على إبراهيم حين سأل ما سأل ، ولا جرده من صفة النبوة وشرف المكانة ، بل كانت كلمة الله رداً على سؤال إبراهيم ﴿ قَالَ أَوْلَمْ تُؤْمِنِ قَالِ بَلَىٰ وَكَانَ لِيُطْمَئِنَّ قَلْبِي ﴾ .

وفى جواب إبراهيم اعتراف صريح معلى ، بأن قلبه لم يكن مطمئناً ، بل أعياه أن يتمثل كيفية إحياء الله الموتى ، فلم يكتب فى نفسه ما خامره من قلق ، بل طلب الرؤية والمشاهدة التماساً لطمأنينة القلب ، والراحة من نوازع القلق وهواجس الحيرة (١) .

ومن الملاحظ فى كل المواقف التى استخدم القرآن فيها الحوار والجدل عن طريق طرح الأسئلة ، إن الله سبحانه وتعالى كان يتجه بها إلى المجالات العملية ، فيما يريد الناس أن يحصلوا عليه من علم ، وفيما يريدون أن يثيروه من سؤال .. على أساس التوعية الفكرية ، وهو أسلوب تربوى فعال ، ذلك أن القضايا النظرية المحضة من القضايا التى لا فائدة منها للحياة بشكل مباشر أو غير مباشر ، وهكذا فى الأمور الكبيرة التى تدخل فى باب الفضول الذى لا جدوى منه ولا منفعة ، مما يجعل صرف الجهد فيه ، تضييعاً للعمر وإهداراً للطاقة لأن قيمة الفكر ، إنما هى ، بمقدار ما يحقق من نتائج عملية تفيد الإنسان فى حياته وبعد مماته ، أو من نتائج نظرية تتعلق بالنتائج العملية (٢) .

إن مثل هذا الاتجاه التربوى الذى نستوحيه من الآيات الكريمة التى صرفت الأسئلة عما لا ينفع للتدليل على مدى العلاقة بين المعرفة وبين الحياة ، حتى لتعتبر المعرفة البعيدة فى الحياة شيئاً ميتاً ، كما هى الحياة عندما تموت . إن مثل هذا الاتجاه فى التربية ، يستطيع أن يقود الحياة الإسلامية إلى الاهتمام بالجوانب العملية حتى فى الفكر ، ويخلصها مما خلفته عصور انحطاط فى وعيها وأسلوبها من التركيز على الجوانب النظرية ، حتى وصلت أوضاعها إلى المدى الذى لم تجد لديها فيه ما يملا فراغها سوى المشاكل اللفظية التى تفرق فيها طاقاتها الفكرية .

٣- الإثراء المعرفى : فالنمو العقلى الحاصل للمسلم نتيجة الجدل والحوار كأسلوب

تربوى فى القرآن ، إنما يختص به هو كفرد ، أما ما نشير إليه فى الجزء الحالى ، فهو ما

(١) مقال فى الإنسان ، ص ٩٢ .

(٢) فضل الله : الحوار فى القرآن ، ص ١٩٧ .

يتصل بالمجال المعرفي والعلمي نفسه على اتساع المجتمع ، والقضيتان مرتبطتان لكنهما ليستا متطابقتين .

أن حقائق التاريخ الفكرى والحضارى تؤكد بما لا يدع مجالاً للشك أن العلم ينمو والمعرفة تزدهر بالقدر الذى يحدث فيه تفاعل بين الأفكار وجدل بين النظريات وتأثير بين أصحاب هذه القضية وأصحاب تلك .

ولأجل أن يتم هذا حرص الإسلام على أن ينهض كل جيل بتعليم الجيل التالى ما وصل إليه من تجارب وما استفاده من معارف ، وأن يرشد العالمون غير العالمين ، وبهذا تتقدم الإنسانية فى سبيل الرقى والكمال ^(١) . ومن الضمانات التى وضعها القرآن لتصل هذه المعارف إلى الأسماع بعيدة عن التضليل والتحريف :

- ألا يكتم عالم ما اهتدى إليه من معارف وعلوم ، فإن هذه المعارف ليست ملكاً خالصاً له وإنما هداية من الله ويتوفيق منه ، والحديث الشريف يقرر أنه (من سئل عن علم فكتمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار) ^(٢) . والله تعالى يقول : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ ، إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُّوا فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ ^(٣) .

- أمانة العلم ينبغى أن تكون فى المحل الأول من الاعتبار بحيث ينقل العالم معلوماته واضحة دقيقة لا لبس فيها ولا تحريف ، ولا زيادة ولا نقصان ، قال تعالى : ﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرَّفُونَ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ ^(٤) . وقال جل شأنه فى بنى إسرائيل : ﴿ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ﴾ ^(٥) .

- العلم حق مشاع للإنسانية جمعاء ، وما بعث الله الرسل إلا معلمين مرشدين سواء بالكتب المنزلة أو القدوة الطيبة .

(١) على عبد العظيم : فلسفة المعرفة فى القرآن ، ص ٢٤ .

(٢) رواه الترمذى وحسنه .

(٣) البقرة / ١٥٩ .

(٤) البقرة / ٧٥ .

(٥) العنكبوت / ١٣ .

والإنسان المسلم لا يستطيع كما بينا أن يحسن الجدل والحوار إلا إذا كان على علم ، وهو لا يستطيع أن يكون على علم إلا إذا أحسن استخدام ما منحه الله عز وجل من أدوات العلم أن أجل تكريم كرم الله به بنى آدم ، وهو أنه سبحانه منحهم أدوات التعلم والتعرف على حقائق الأمور ، وصفات الأشياء وخصائصها ، وذلك ليتابعوا في حياتهم بحثهم العلمى السليم وليكتشفوا أسرار هذا الكون الدالة على عظمة خالقه حتى يصلوا إلى معرفة عظيم صفات الله وجليل حكمته ، ومعرفة ما يجب عليهم نحوه من طاعة وعبادة وشكر ، وحتى يحسنوا الائتفاع مما بث الله لهم فى هذا الكون من قوى وخيرات ، كما أذن لهم ، دون إفساد فى الأرض ، أو إضرار بالنفس أو أذى أو ظلم وعدوان (١) .

أما الذين يعطون أدوات المعرفة التى وهبهم الله إياها ، أو يستخدمونها فى حدود ظواهر الحياة الدنيا ، ثم لا ينتقلون من ذلك إلى معرفة خالقهم ورازقهم ومفيض النعم الظاهرة والباطنة عليهم ، ولا يؤمنون به ، ولا يعبدونه ولا يشكرونه ، فأحرى بهم أن يقال عنهم صم وبكم وعمى فهم لا يعقلون ، وذلك لأنهم قد عطلوا هذه الأدوات التى منحهم الله إياها عما خلقت من أجله ، فهم وفاقدها سواء ، وأولئك شر الدواب عند الله ، قال تعالى : ﴿ إِن شَرَّ الْخَوَابِ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ (٢) ، وأولئك هم المحكوم عليهم بالعذاب الدائم فى جهنم ، قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ نَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ (٣) .

وإنما كانوا أضل من الأنعام لأن لديهم أدوات المعرفة فعطلوها عما خلقت من أجله ، أما الأنعام فإنها لم تمنح الأداة الكبرى للمعرفة وهى العقل ، لذلك فهى غير مسئولة عن شئ ليس لديها أدواته (٤) .

ولا شك فإن استقرار بسببها للتاريخ فى الحضارة الإسلامية ، يمكن أن يقدم لنا منافع الأدلة والبراهين المؤكدة لهذه المقولة : حيثما توافر جدل وحوار ، فهناك ثراء معرفى وتقدم علمى .

(١) الميدانى : أسس الحضارة الإسلامية ، ص ٢٨٨ .

(٢) الأنفال / ٢٢ .

(٣) الأعراف / ١٧٩ .

(٤) أسس الحضارة الإسلامية ، ص ٢٨٩ .

٤- الأخلاقية : فالمسئولية الأخلاقية فى الإسلام عدة شروط لو تأملناها ، فسوف نجد أن أسلوب التربية القائم على الحوار والجدل ، وسيلة أساسية تسهم إلى حد كبير فى توفير هذه الشروط مما يجعلنا نتق بأن هذا الأسلوب له دوره الفعال والنشط فى التربية القائمة على الأخلاق الإسلامية .

وعلى سبيل المثال ، فمن أول شروط المسئولية الأخلاقية فى الإسلام ، أن يكون صاحب العمل أهلاً لتحمل المسئولية ، وقد حدد الشرع مظاهر (الأهلية) فى العقل والبلوغ . ففائد العقل تمسقط عنه المسئولية تماما ، أما البلوغ ، فقيمته أنه يتيح فرصة طويلة للمربين من أولياء أمور ومعلمين وآباء أن يقوموا بواجبهم تجاه إنضاج الطفل وتنشئته وتربيته وتربيته على كل ما من شأنه أن ينمى عقله ويفتح مداركه ويوسع أفقه ، ذلك أن المسألة ليست مجرد امتلاك للعقل ، وإنما هى - بالإضافة إلى ذلك - ضرورة جعله قادراً على فهم الشريعة والتدبر فى جوانب الكون التى دعا إليها الله عز وجل ، والوعى البصير بالتكاليف وعاقبة تركها .

ومن شروط المسئولية كذلك : أن يكون العمل إرادياً ، ولعل أفضل تدريب على ممارسة الإنسان لحرية إرادته ، و ذلك الحرص الذى أوضحناه من ضرورة ألا يتم الحوار والجدل تحت أى صورة من صور الإكراه والقسر ، وفى مواقع معينة فى القرآن الكريم تشدد لهجة الوحي فى التحذير من الإكراه أو القسر فى القضايا الإيمانية : ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنْتَ تُكْرَهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ . وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُوْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرَّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَمَعِلُونَ﴾ (١) .

يقول ابن كثير فى تفسير هذه الآية : ' .. ولو شاء ربك يا محمد لأنزل لأهل الأرض كلهم فى الإيمان بما جنتهم به فأمنوا كلهم ولكن حكمة الله فيما يفعله تعالى كقوله ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ، إِنْ مِنْ رَحْمِ رَبِّكَ وَلَدَٰكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ . وقال تعالى : ﴿وَلَوْ أَنْ أَرَأَانَا مَيَّرْتِ بِهِ الْجِبَالَ أَوْ قَطَّعْتِ بِهِ الْأَرْضَ أَوْ كَلَّمْتِ بِهِ الْمَوْتَىٰ بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعاً أَفَلَمْ يَبْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعاً ﴾ ، ولهذا قال تعالى : أَفَأَنْتَ تُكْرَهُ النَّاسَ .. أى تلمزمهم وتلجنهم حتى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ، أى ليس ذلك عليك ولا إليك بل الله يضل من يشاء ويهدى من يشاء ' (٢) .

(١) يونس / ٩٩ .

(٢) عن : محمد جواد رضا : الفكر التربوى الإسلامى ، ص ١٠ .

والمشروط الثالث هو أن تكون نية الإنسان وغايته المقصودة له من عمله الإيجابي أو السلبي ما ينتج عن العمل فعلا من خير أو شر (١) . فإذا كان لصاحب العمل نية أخرى غير ذلك ، فإن المسئولية الحقيقية عند الله تكون وفق نيته وغايته دون ظاهر السلوك وما ينجم عنه ، أما السلوك الظاهر فيكون عندئذ من قبيل العمل الملقى ، وتكون نتائجه من قبيل القضاء والقدر المحض .

ولذلك تلغى عند الله أعمال المرئيين والمنافقين مهما كان مظهرها صلاح وخير ويحاسبون على نياتهم وغاياتهم التي كانوا يضمرونها في قلوبهم ، ويتجاوز الله عن أعمال المسيئين إذا كانت نياتهم التي يضمرونها في قلوبهم نيات صالحة بشرط أن يكونوا معنورين في أخطائهم بممارسة الأعمال السيئة (٢) .

وقد يتصور البعض أن شرط النية لا علاقة له بهذا الأسلوب التربوي القائم على الحوار والجدل ، وليس هذا صحيحا . ذلك أننا علمنا من شروط صحة الجدل والحوار أن يلتزم أطرافه بالأمانة والصدق ، ولا شك أن طول التمرس بكل من الأمانة والصدق من شأنه أن يجعل المعلم موضوع التربية جديرا بأن يكون صادق النية ومخلصا فيما يصدر عنه من أعمال .

وإذا كان (البيان) نعمة من أجل النعم التي أسبغها الله على الإنسان ﴿الرحمن . عَلَّمَ الْقُرْآنَ . خَلَقَ الْإِنْسَانَ . عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ ، فقد بين الإسلام كيف يستفيد الناس من هذه النعمة المسداة ، وكيف يجعلون كلامهم الذي يتردد سحابة النهار على ألسنتهم طريقا إلى الخير المنشود ، فإن أكثر الناس لا ينقطع لهم كلام ولا تهدأ لألسنتهم حركة (٣) . فإذا ذهبت تحصى ما قالوا ، وجدت جله اللغو الضائع أو الهذر الضار ، وما لهذا ركب الله الألسنة في الأفواه ، ولا بهذا تقدر الموهبة المستفادة : ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (٤) . ولقد عنى الإسلام عناية كبيرة بموضوع الكلام ، وأسلوب أدائه لأن الكلام

(١) الميداني : الأخلاق الإسلامية ، ج ١ ، ص ١١٢ .

(٢) لمرجع السابق ، ص ١١٣ .

(٣) محمد الغزالي : خلق المسلم ، ص ٧٢ .

(٤) النساء / ١١٤ .

الصادر عن إنسان ما ، يشير إلى حقيقة عقله وطبيعة خلقه ، ولأن طرائق الحديث فى جماعة ما ، تحكم على مستواها العام ، ومدى تغلغل الفضيلة فى بيتها .

وحرص الإسلام على أن يكون القول الطيب والقول الجميل مقوما أساسيا من مقومات أخلاق المسلم ، فلقد أوضح القرآن أن القول الحسن من حقيقة الميثاق المأخوذ على بنى إسرائيل على عهد موسى ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالَّذِينَ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ﴾ (١) .

والكلام الطيب العف ، يجمل مع الأصدقاء الأعداء جميعاً ، وله ثماره الحلوة . فأما مع الأصدقاء ، فهو يحفظ مودتهم ويمستدبم صداقتهم ، ويضع كيد الشيطان أن يوهى حبالهم ويفسد ذات بينهم : ﴿ وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴾ (٢) . إن الشيطان متربص بالبشر يريد أن يوقع بينهم العداوة والبغضاء وأن يجعل من النزاع الساتفه ، عراكا داميا ولن يسد الطريق أمامه كالقول الجميل (٣) .

وأما حسن الكلام مع الأعداء فهو يطفى خصومتهم ويكسر حذتهم أو هو على الأقل يوقف تطور الشر واستطارة شرره : ﴿ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ (٤) .

وفى يقيننا أن أهم مقوم من مقومات الكلام الطيب الجميل ، أن يكون بحجة وأدلة وأن يكون صادقا وأمينا ، وأن ينبنى على الإرادة الحرة والحوار والنقاش ، فالنظام والصدق والدقة والتسلسل المنطقى والاتساق والترابط وغير ذلك من عمليات ضرورية للحوار والجدل هى بغير شك من مقومات الجمال .

٥- تحرير الوجدان والعقل البشرى : وتربية المتعلم على ديام التساؤل والحرص على الاكتناع والبحث عن الأدلة والبراهين تجعل من العمير على غير دعوة الحق ، أن تستبد بعقل المسلم ووجدانه . إن الإصلاح والتغيير ، حركة ، والحركة عمل ، والإنسان ليس

(١) البقرة / ٨٣ .

(٢) الإسراء / ٥٣ .

(٣) الغزالي : خلق المسلم ، ص ٧٦ .

(٤) فصلت / ٣٤ .

حيوانا يساق إلى العمل بغير إرادة ، والإرادة لا تقوم بعمل إلا إذا كانت ملكا حقيقيا لصاحبها ، مما لزم معه تحرير الوجدان والعقل .

إن هناك مجتمعات عدة على درجة عالية من التقدم بالمقاييس الشائعة فى عصرنا الحالى من حيث مستوى الدخل والقوة العسكرية ومساحة الأراضى وما إلى ذلك ، لكنها تعيش درجة عالية من الاستبداد ، ولذلك نجد أن ولاة الأمر فيها قد يشجعون ازدهار وتقدم وانتشار عدد غير قليل من العلوم ، لكنهم فى نفس الوقت يحرصون على محاصرة تلك الأساليب التربوية والمناهج الفكرية التى تفتح الأذهان وتربى مهارات التفكير الناقد ، وتبث الشجاعة الأدبية فى المتعلمين التى تجعلهم لا يخشون غى الحق كبيرا .

وقول الكواكبي : " إن بين الاستبداد والعلم حربا دائمة وطرادا مستمرا . يسعى العلماء فى نشر العلم ويجتهد المستبد فى إطفاء نوره والطرفان يتجاذبان العوام ، ومن هم العوام ؟ هم أولئك الذين إذا جهلوا خافوا ، وإذا خافوا استسلموا . وهم الذين متى علموا قالوا ، ومتى قالوا فعلوا .

العوام هم قوت المستبد وقوته بهم عليهم وصول وبهم على غيرهم يطول . يأسرهم فيتهللون لشوكته ويغصب أموالهم فيحمدونه على إبقاء الحياة ، ويهينهم فيثنون على رفعتهم ويغرى بعضهم على بعض فيفتخرون بسياسته ، وإذا أسرف بأموالهم يقولون عنه أنه كريم ، وإذا قتل ولم يمثل يعتبرونه رحيما ، ويسوقهم إلى خطر الموت فيطيعونه حذر التأديب ، وإن نقم عليه بعض الأباة قاتلوهم كأنهم بغاة " (١) .

ومن هنا فإن تربية المسلم على عبادة الله وحده لا شريك له ، تحرر عقله ووجدانه من أن يخضع لسلطان فكرى آخر غير سلطان الخالق الواحد .

وتربية المسلم تؤمن حقا بأن هذا الكون يجرى على سنن ثابتة وفق المشيئة الإلهية سبحانه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيمُ﴾ ، لكنها تؤمن كذلك بأن الإيمان بالعنن الثابتة لا يبرر بأى حال من الأحوال فكرة (التواكل) التى هى الطريق الجهنمى للقضاء على حرية العقل والوجدان ، فانه لا يرسل الرزق للقاعدين دون سعى ، ومن فقد قوته فقد إرادته .

(١) عبد الرحمن الكواكبي : طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد ، القاهرة ، طبع بالكتيبة د . ت ، ص ٢٩ .

ألا فليعلم من لا يعلم أن ليس في القرآن الكريم لفظ التواكل بأى من الصيغ على الإطلاق ، وإنما الذى فيه توكل على الله مسبوق بالعزم ومشروطا به : ﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ (١) .

وهو يوجه سعى المؤمن إلى الخير ويلهمه الرشاد ، فالتوكل على الله يراقب ربه فى عمله وقوله ومسماه ، فلا يخون ولا يزيغ ولا يضل . ويعطيه التوكل على خالقه زادا من السقاة فى نجاح السعى الصالح ، ويؤنسه ببشرى أجر عمله المذيب (٢) : ﴿ نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ .

وفى باب الأمر بالقوة وترك العجز والاستعانة بالله وتقويض المقادير إليه ، من صحيح مسلم ، قال رسول الله ﷺ : " المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف ، وفى كل خير . احرص على ما ينفعك ، واستعن بالله ولا تعجز .. " .

ولاشك أن القدرة على السيطرة على الظواهر الطبيعية إنما تنتهى بإدراك القوانين التى تحكم سيرها ، ولذلك كان المنطق الذى يفرق العقل البشرى فى متاهات النظريات عالية التجريد بعيدا عن حركة الواقع ، غير مؤد إلى تحرير العقل ، بعكس ذلك المنطق الذى يتجه إلى صخب الحياة الواقعية ومشكلاتها ، ويتجه إلى الظواهر الطبيعية حاثا على دراستها والتفكر الواعى العاقل فيها .

ولعل قيمة هذا الأسلوب ، أنه يجعل العقيدة تتحرك مع حركة الحياة اليومية ، ومع الكون الواسع الكبير الذى يحيط بالإيمان ، ويدفع حياته إلى النمو والتجدد والاستمرار فلا يشعر المربى فى حوارهِ مع تلاميذه أنه ينفصل عن الحياة وهو يتحدث ، ولا يشعر التلاميذ أنهم يفرقون فى ضباب الأفكار التجريدية ، وهم ينطلقون فى معرفة الله .. وبهذا تكون قضية المعرفة بالله والإيمان بوجوده ، قضية الحياة بكل ما فيها من قوة وحيوية واستمرار ، وليست قضية الخيال الذى يلهث ليفتس عن موطن قدم له فى عالم الواقع (٣) .

وتواجهنا - فى هذا الأسلوب - آيات كثيرة ، نذكر منها : قوله تعالى ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (٤) . وقال : ﴿ أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا

(١) آل عمران / ١٥٩ .

(٢) عائشة عبد الرحمن : الشخصية الإسلامية ، ص ١٢٩ .

(٣) فضل الله : الحول فى القرآن ، ص ٨٤ .

(٤) النحل / ٧٨ .

وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ . وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَكُونَ . وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿١﴾ .

وهكذا نجد في مثل هذه النماذج - وغيرها كثير بطبيعة الحال - كيف يمكن للمربي المسلم أن يفيض في الحياة عن ظواهر الحياة وهو يتحدث كأي حديث آخر يتصل بالحياة ، حتى إذا استطاع أن يثمد أفكار الآخرين واهتمامهم إلى ذلك ، أطلق الفكرة الإلهية ، كفكرة تبرز ذلك بانه ، وتعطيه المعنى المعقول في عملية توعية وإيمان .

ويتعاضم هذا الدور في الوسط العلمي الذي يهتم - دراسة وتدريساً - بعلوم النبات والحيوان والفيزياء والكيمياء ، فإن من الممكن أن يجد في هذا الوسط الميدان الرحب الذي يجول ويصوّل فيه بالأمرار الكامنة في كل هذه العلوم التي تمتد في جذورها - بعمق - لتصل إلى المعرفة الحقّة بالله سبحانه وتعالى (٢) .

(١) الأنبياء / ٣٠ - ٣٢ .
(٢) فضل الله : الحوار في القرآن ، ص ٨٦ .